

إشكالية التفسير في علم الآثار: ظاهرة التضحية بالأطفال في قرطاجة نموذجاً*

مولاي محمد جانييف

معهد الآثار - جامعة اليرموك

إربد - الأردن

تكتسي مسألة التفسير أهمية خاصة في علم الآثار، إذ تتوخى الإجابة عن أسئلة، الهدف منها هو فهم الظاهرة الأثرية وتعليلها. والفهم لا يتأتى طبعاً إلا بعد عملية الوصف والتركيب، وهي في كل الأحوال عملية شاقة طويلة، تبدأ في الميدان ولا تنتهي إلا بعد استكمال البحث لمختلف أوجهه وجوانبه.

إن اختيارنا لظاهرة التضحية بالأطفال في قرطاجة البونية نموذجاً لإشكالية التفسير في علم الآثار، هو اختيار ينطلق من السمة الجدلية لهذه المسألة التي أثارَت على امتداد قرن من الزمان أو يزيد جدلاً يبدو زخمه واضحاً في الكم الهائل من الأدبيات التي كتبت في هذا الموضوع^(١)، والتي حاولت الإجابة عن السؤال الإشكالي: لماذا مورست التضحية بالأطفال في قرطاجة والعالم البوني؟

سؤال لا تطمح هذه الدراسة للإجابة عليه بقدر ما تسعى إلى استعراض الفرضيات أو النماذج التفسيرية التي قُدمت كمحاولة لتقديم تفسير للظاهرة. لكن ربما بدا من الأصح لو أننا تساءلنا أولاً: هل مورست التضحية بالأطفال فعلاً في قرطاجة؟ ما المقصود بكلمة تضحية أولاً؟ للأسف يبدو الحقل الدلالي لهذه الكلمة مقيداً في اللغة العربية

* أساس هذه الدراسة عمل أكاديمي قُدم لنيل شهادة الماجستير (دبلوم الدراسات العليا) في الآثار من معهد الآثار والأثروبولوجية - جامعة اليرموك - الأردن، سنة ١٩٩٧.

بمعاني "الذبح، القتل..." (Immolation) وهي معاني تشكل جزءاً بسيطاً من مدلولات اللفظة المقابلة في اللغات الأعجمية (Sacrifice) في الفرنسية والإنكليزية و Opfer في الألمانية). ولئن كانت الكلمة الأولى (Sacrifice) تؤدي معنى عاماً يرفد من المعنى الذي أدته الكلمة في أصلها اللاتيني (sacrificum)، إضفاء القداسة على الشيء أو جعل الشيء مقدساً، فإن الكلمة الثانية (Opfer)، يقابلها في الفرنسية offre وفي الإنكليزية Offering لا تخرج عن نطاق هذا المعنى إن نحن اعتبرناها متأصلة من الفعل اللاتيني (operari) [أنجز /أوفى بعهد/ أدى التزاماً]^(٢).

هكذا يتضح أن اللبس الذي تخلقه كلمة "تضحية" في اللغة العربية غير وارد في اللغات الأجنبية سواء مع الكلمة (Sacrifice) أو مع الكلمة (offering)، كلتاهما تعنيان تقويض أو تقديم الشيء المكرس أو المضحى به إلى سلطة عليا غير عادية. هل مورست التضحية بالأطفال فعلاً في قرطاجة والعالم البوني؟

هذا السؤال ليس بجديد، لأنه أثير حقيقة منذ سنة ١٨٦٢، السنة التي نشر فيها الأديب الفرنسي غوستاف فلوبير G. Flaubert (١٨٢١-١٨٨٠) روايته الشهيرة "صلمبو" (Salammbô) التي استلهم فيها كتابات جملة من المؤلفين الكلاسيكيين على رأسهم ديودور الصقلي. والواقع أن فلوبير بروايته هذه قد خص لنفسه مكاناً في صفوف هؤلاء المؤلفين أنفسهم الذين لم تكن لنصوصهم سلطة كافية تمنع باحثاً مثل سسانت-بوف Sainte Beuve من التساؤل: هل مورست التضحية بالأطفال فعلاً في قرطاجة؟ ومن الإجابة بالنفي^(٣)!

التشكيك إذن في صحة الروايات الكلاسيكية ليس حديث عهد. ولئن كان في الحالة المذكورة انتقاداً لنص (رواية فلوبير والروايات الكلاسيكية)، فإن حدة هذا التشكيك لم تخف إلا بعد توالي اكتشافات "أحرام التضحية" في عموم العالم البوني: في نورا بسردينيا سنة ١٨٨٩ وفي موتيه بـ صقلية سنة ١٩١٩ ثم في قرطاجة سنة ١٩٢٢.

هكذا جاءت الشواهد المادية لتدفع إلى أخذ الروايات الكلاسيكية المذكورة على محمل الجد، وفوق ذلك إلى التخلص من نزعة الشك وطرح السؤال الإشكالي: لماذا مورست التضحية بالأطفال في قرطاجة وفي غير قرطاجة؟

لم يتخذ الجواب عن هذا السؤال منحى واحداً في كل الحالات. لكن ما تحكم في الأجوبة بشكل أو بآخر ووجهها نحو تقديم نماذج تفسيرية وصارمة في أغلب الأحيان هو اتخاذ أو عدم اتخاذ روايات العهد القديم مرجعاً في تحقيق ذلك. إن هذه الروايات باعتبارها سلطة مرجعية حقيقية لم تكن مجرد نصوص تحتاج إلى شواهد مادية تثبت ما ورد فيها من أخبار، بل كانت المصدر الذي تستلهم منه التفسيرات والأجوبة، وليست استعارة اللفظي "توفت"^(٤) من هذه الروايات تسمية على "أحرام التضحية" سوى مثال بسيط على ذلك؟

بيد أن الحكم على هذه النماذج التفسيرية انطلاقاً من اتخاذها أو عدم اتخاذها لروايات العهد القديم مرجعاً يبدو حكماً اختزالياً قد يصح على جماعة الفيلولوجيين الذين أعلنوا النص على ما سواه، لكنه لا ينطبق على جملة من علماء الآثار ومؤرخي الأديان الذين حاولوا التخلص من المرجعية الواحدة التي يمثلها النص (توراتياً كان أن كلاسيكياً) باعتماد مرجعيات متعددة بدءاً بعلم الآثار المقارن والأنثروبولوجيا العضوية مروراً بـ الباليوديموغرافيا والديموغرافيا التاريخية وانتهاءً بالإيكولوجيا.

ولأن المرجعيات تعددت فقد انفتحت آفاق واسعة أمام هذه النماذج التفسيرية، ما أدى إلى التباين بينها مع أن هناك نماذج حاولت التوفيق بين نموذجين أو أكثر.

وهنا محاولة لاستعراض هذه النماذج، مع ضرورة التنبيه إلى أن تصنيفها تحت عناوين كبرى هو مجرد أسلوب إجرائي صرف لا يهدف إلى إصدار تصنيفية بقدر ما يحاول تقديم صورة واضحة نسبياً على الخطوط التي قاربت أو باعدت بين التفسيرات.

١ - النموذج التفسيري المحافظ:

استمد نزعتة المحافظة من ارتباطه بروايات النص التوراتي، لذلك اتجه رواد هذا النموذج نحو تفسير مضمون هذه الروايات تفسيراً حرفياً: هناك إله (مولوخ) ذو أصول كنعانية أو سورية تمييزاً قدم له بنو إسرائيل أطفالهم عندما حادوا عن طريق (يهوه) ومشوا في طريق (بعل)، فجاء الأنبياء ليشجبوا هذا الخروج عن الطريق القويم ويردوا أتباع (يهوه) إلى سراط إلههم...

الفينيقيون كنعانيون، انتشروا في حوض البحر الأبيض المتوسط فنقلوا معهم إلى مستعمراتهم الجديدة عبادة (بعل) وطقوس التضحية بالأطفال، وكفى بأحاديث الكتاب الكلاسيكيين ثم بعد ذلك بـ "أحرام التضحية" في نورا، موتيه، قرطاجة... دليلاً على ذلك.

أصحاب هذا النموذج نجد فيهم عالم الآثار ومؤرخ الأديان ورجل اللاهوت، لكن ما يوحّد بين مناهجهم هو المركزية التي يشغلها النص التوراتي في أعمالهم. كيف أجاب هؤلاء عن السؤال الإشكالي: لماذا مارس الكنعانيون وبنو إسرائيل التضحية بالأطفال؟ لماذا قدموا للإله (مولوخ) الأضاحي من أبنائهم؟

لم تؤثر كثيراً الخلفية العلمية أو الأكاديمية لأصحاب هذا النموذج في توجيه الأجوبة، بل إن ما أثر في ذلك هو النص الذي كانت له الأسبقية على ما سواه. وهنا لن نستعرض سوى بعض التفسيرات التي طرحت ضمن هذا النموذج وحاولت فهم الطقس من خلال تاريخ الأديان. هناك أولاً النظرة التطورية التي رفع لواءها جيمس فرايزر G. Frazer^(٥) والتي يجد تطبيقها على قرطاجة (القرن الثامن - القرن الثاني ق. م). حواجز من غير السهل تجاوزها. وهناك النظرة التي رأت في طقوس التضحية بشكل عام محاولات مارسها بنو البشر قديماً، لتغذية آلهتهم حسب فكرة كانت ترى الآلهة مثلها مثل الإنسان تحتاج إلى طعام يقيم أودها^(٦).

٢- النموذج التفسيري المشكك:

إذا كانت جذور هذا النموذج ترجع إلى أواسط القرن الماضي، كما تجلت عند سانت-بوف (انظر أعلاه)، فإن معاودة ظهوره على ساحة البحث لم تتحقق إلا في الخمسينيات من القرن الحالي، على لسان كلود شيفر C. Schaeffer: "أعتقد أنه في قرطاجة أيضاً لم يتعلق الأمر في الحقيقة بأطفال أحياء قُدموا كأضاحي (م ل ك)، ولكن بأطفال ولدوا أمواتاً أو قضوا في سن مبكرة، فتم دفنهم في جبانات خاصة بالقرب من أحرام أو هياكل (sanctuaires). إن الوفيات في صفوف الأطفال كانت قد أوجدت في القديم [عند الكتاب الكلاسيكيين] فكرة أضاحي الأطفال التي تبناها بعض الآثاريين. لكن عندما نبحث عن دلائل نقوشية أو أثرية غير قابلة للرفض، فإن الفرضية تتلاشى" (٧).

اقتبسنا مقطعاً مطولاً من نص شيفر لسببين اثنين: أولاً لأنه ي طرح فكرة تأسيسية، وثانياً فرضيته تقدم جملة من القضايا لم تثر انتباه أحد قبله. إن نصه تأسيسية لأنه يشكل في الواقع بداية تيار حقيقي نظر بعين الشك للروايات الكلاسيكية وتخلص نسبياً من سلطة النص التوراتي، إذ لم يرجع لأسفار العهد القديم إلا للتحقق من بعض الأمور التقنية مثل المكان الذي كان يحرق فيه الأطفال وكيفية الحرق، أما القضايا التي تطرحها فرضية شيفر فهي فعلاً جديدة:

الارتفاع الكبير في وفيات الأطفال؛ موقف الكتاب الكلاسيكيين من هذه الظاهرة حيث نظروا إلى وفيات الأطفال كأضاحي ذبحت ثم أحرقت وقُدمت لـ كرونوس/ ساتورن. غير أن في نص شيفر أمر غير واضح، إنه يتحدث عن "أطفال وُلدوا أمواتاً أو قضوا في سن مبكرة فتم دفنهم في جبانات / معابد؟ ولماذا كانت هذه الجبانات بالقرب من أحرام؟

لن نجد الإجابة عن هذه الأسئلة سوى عند جملة من الباحثين، الفرنسيين والإيطاليين بالأساس، الذين طوروا فرضية شيفر التي وإن كانت فرضية تأسيسية إلا أنها ظلمت بحاجة إلى أعمال تطورها وتسد ثغراتها.

مهمة مثل هذه كانت ضرورية لإخراج الفرضية المذكورة من الغموض المحيط بها، ومساعدتها على الإجابة عن أسئلة تتبادر إلى الأذهان بمجرد ما يقال بأن العظام المتضمنة في جرار (محرم ت ن ت) تعود لأطفال ولدوا أمواتاً، أو توفوا في سن مبكرة. إذا كان الأمر كذلك فلماذا تم اللجوء للحرق؟ ولماذا صاحبت الجرار "الجنائزية" أنصاب نذرية؟ كيف نفسر وجود بقايا حيوانية مع عظام عائدة لأطفال؟

لم يجب شيفر عن هذه الأسئلة، لكن من أخذ على عاتقه إنجاز ذلك هو سباتينو موسكاتي S. Moscati^(٨). يتفق عميد الدراسات الفينيقية^{*}، مع شيفر حول قضية ارتفاع نسب الوفيات بين الأطفال في المجتمعات القديمة بشكل عام، ويتفق معه بالطبع في أن العظام الموجودة في الجرار "الجنائزية" في أحرام التضحية تعود لأطفال ولدوا أمواتاً أو قضوا في سن مبكرة^(٩).

لكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تم اللجوء للحرق؟ ولماذا صاحبت الجرار "الجنائزية" أنصاب نذرية؟ بل إذا كان الأمر كذلك، أي كانت ظاهرة الوفيات بين الأطفال مرتفعة في القديم، فلماذا لم يمارس اليونان والرومان طقوساً مماثلة؟ ألم تعرف مجتمعاتهم الظروف ذاتها، ما دام الحديث يدور عن مجتمعات تحكمت في نموها الديموغرافي والاقتصادي وإليات (ميكانيزمات) مشابهة؟

* لا بد من القول: إن (الفينيقيين) ليست سوى التسمية التي أطلقها الإغريق -انطلاقاً من (الأوديسية) المنسوبة إلى الشاعر الملحمي هوميروس- على كنعاني الساحل السوري (الأوسط) ثم شاعت التسمية لاحقاً لدى هيكتيوس الملطي وهودوتس وغيره من الكتاب الإغريق والرومان.... الخ. (رئاسة التحرير)

لم يحالف موسكاتي كثير من النجاح في الإجابة عن هذه الأسئلة، فهو حتى يفسر ظاهرة الحرق أو اللجوء للنار استعان بالميثولوجيا والفكر الديني، فحاول من خلالهما قراءة دور النار عند القدماء، ذلك الدور الذي اعتبره تطهيرياً بالأساس، ثم ليتحدث من هذا المنطلق عن طقس تطهيري (rito purificatorio)^(١١). بيد أنه تحدث أيضاً عن طقوس تعميدية أو استهلالية (riti d'iniziazione) كان يتم بموجبها تطهير الطفل الذي ينظر إليه باعتباره متوفى في سن مبكرة كإنسان غير طاهر، لا بد من إحراقه لإخراجه من هذه الحالة إلى حالة الطهارة التي تجعله مقبولاً في المجتمع، وتخوله التمتع في الما وراء بالمزايا التي يتمتع بها "المشفيون"^(١٢).

لكن كيف أجاب موسكاتي عن السؤال الصعب: لماذا لم تقدم لنا المجتمعات المجاورة، تحديداً المجتمعان اليوناني والروماني، ظواهر مشابهة مع أنها عانت ديموغرافياً واقتصادياً من المشاكل نفسها؟

بالنسبة له النفي الوارد في السؤال غير صحيح، لأن هناك مثالين على الأقل يقدمهما لنا العالمان اليوناني والروماني يدلان على أن أنداد الفينيقيين واليونانيين مارسوا هم أيضاً حرق الأطفال: هناك أولاً مثال أثينا التي عثر فيها على جرار احتوت عظاماً محروقة تعود لأطفال وحيوانات تم تأريخها للقرن الرابع - الثالث ق. م. ثم هناك مثال بوليا Puglia الواقعة جنوب شرق إيطاليا، التي عثر فيها على مدافن خاصة بالأطفال امتد تاريخها من العصر الحديدي حتى القرن الثاني الميلادي. كيف قرأ أو أول موسكاتي هذين المثالين؟ كيف تم ربطهما بمثال قرطاجة وبالأمثلة الفينيقية - البونية الأخرى؟

في نظره، يقدم المثال الأول الدليل على أن اليونان مارسوا طقساً لا يختلف عن الطقوس التي مارسها البونيون؛ أما المثال الثاني - مقال بوليا - فيقدم حسب رأيه الدليل على أن الفصل قد ساد في العالم الكلاسيكي (اليوناني - الروماني) بين مدافن البالغين

ومدافن الأطفال^(١٢). في رأي موسكاتي إذن لم تمارس التضحية بالأطفال بالصورة التي نقلها لنا الكتاب الكلاسيكيون. أنى لتلك الصورة أن تصح -يتساءل موسكاتي- والآلهة التي كانت تقدم لها هذه الأضاحي المزعومة قد أسبغت عليها صفات الأمومة^(١٣)؟ كأن صفات الأمومة هذه تجعل أي ممارسات من هذا القبيل أمراً غير معقول !

إن وقوفنا الطويل نسبياً على التفسير الذي قدمه موسكاتي نبرره بسبب وجيه: المنطلق الذي شكله التفسير لتطوير فرضيات شكلت استمراراً حقيقياً للنهج التشكيكي الذي لمسناه عند شيفر وموسكاتي.

هناك أولاً الباحثة الفرنسية كوليت بيكار C. Picard التي اقتبست الكثير من أفكار موسكاتي، لكنها تحدثت عن النار بوصفها مبدأً تطهيرياً أو تخليصياً (من الخلاص) يقود إلى الخلود؛ حاولت قراءة ذلك في ضوء الحكاية التعليلية (etiologic) الواردة في جوستان Justin: كيف تهربت ديدون (أليسا) من ملك اللوبيين الذي أراد أن يتزوجها بأن ألقت بنفسها في محرقة أقيمت بأمر منها، فكان من نتيجة ذلك أن كرست لها في الموضع نفسه عبادة ارتبطت بها^(١٤).

إذا كانت بيكار قد اقتبست أفكار موسكاتي دون أن تضيف عليها جديداً، فإن غرا M. Gras، ورويار P. Rouillard، وتيكسيدور J. Teixidor أغنوا هذه الأفكار بأن طرّقوا بعض الجوانب التي أغفلها موسكاتي في دراسته. بالنسبة للباحثين الثلاثة، لاشك أن الوفيات في صفوف الأطفال كانت مرتفعة قديماً، وهو ارتفاع تبدو ملامحه واضحة في الـ "توفت" الذي دفن فيه أطفال ماتوا في مراحل مبكرة، إما قبل أوان ولادتهم (=أجنة) أو عند الولادة أو بعدما بلغوا من العمر أشهراً^(١٥). بيد أن غرا وزميليه يتجاوزون هذه المقدمة التي لا شك أنها الصرح الذي بدونه تنهار فرضيتهم ليحاولوا

الجواب عن سؤال مهم: كيف يمكن تفسير موقف الكتاب الكلاسيكيين ممن ظاهرة التضحية بالأطفال عند البونيين؟

الجواب عند الباحثين الثلاثة واضح وبسيط: عانت مجتمعات حوض البحر الأبيض المتوسط قديماً من نسب عالية في وفيات الأطفال. هذه ظاهرة عامة عانى منها المجتمع البوني كما اليوناني كما الروماني، لكن الاختلاف تجلى في الطريقة التي تعامل وفقها كل مجتمع مع هذه الظاهرة. هنا يبرز دور الثقافة، وهو دور مهم للغاية لأنه هو الذي وجه هذه الطرق وغلفها بمفاهيم معينة. ولعل أفضل مثال لتوضيح هذه الفكرة هو مقارنة الطريقة التي اتبعتها اليونان في تعاملهم مع هذه القضية بالطريقة التي سلكها الفينيقيون - البونيون: فإذا كان الأولون قد دفنوا موتاهم من الأطفال في جرار أو في قدور، أي حسب الطريقة التي اصطلح على تسميتها "الوضع في قدور" (putting in cooking pots)، غير بعيد عن مدافن الآباء، فإن الآخرين أحرقوا موتاهم من الأطفال ولم يدفنهم إلا في النادر من الحالات. فعل مثل هذا كان كفيلاً بإثارة الاستغراب وسوء الفهم عند الطرف الآخر، الذي انبرت أقلام كتّابه واصفة هذا الفعل بأقذع الصفات^(١٦).

في ظل هذا التفسير يصبح موقف الكتاب الكلاسيكيين مفهوماً، إنه موقف حاصل عن سوء فهم، عن تباين ثقافي مثلته ظاهرتان ثقافيتان متميزتان: عند اليونان كانت الرغبة قوية في الاحتفاظ بالأموال من الأطفال قرب آبائهم، أما الفينيقيون - البونيون فلجئوا للحرق مهشمين بذلك أطفالهم الذي قضوا في سن مبكرة، وهو الفعل الذي رأى فيه الكتاب الكلاسيكيون مظهراً من مظاهر القسوة والبربرية^(١٧).

بيد أن الدراسة المتميزة في إطار النموذج التفسيري المشكك هي تلك التي أنجزتها هيلين بنعيشو - سفر H. Bénichou-Safar وسارت في اتجاهين: اتجاه فيلولوجي واتجاه تناول بالنقد والتمحيص السجل العظمي والمعطيات الأثرية المتاحة. في إطار الاتجاه

الأول^(١٨)، استطاعت الباحثة أن تقدم قراءة جديدة للمصطلح (م ل ك) في ضوء المعطيات التي يقدمها العهد القديم سواء في نصه الماسوري (le texte massorétique) أو السبعوني (la Septante) أو اللاتيني الشعبي (la Vulgate) حيث استنتجت بأن اللفظة (م ل ك) هي دلالة على طقس استهلاكي المراد منه تفويض أمر الأطفال المتوفين في سن مبكرة إلى سلطة دينية عليا أو تحديداً إدخالهم تحت نير الإله (توفت) أو "هياكل التضحية" بالمقابر، معرفة ماهية ووظيفة "هياكل التضحية" (le rite d'entrée sous le joug). أما في الاتجاه الثاني،^(١٩) فقد حاولت من خلال مقارنة الـ (توفت) أو "هياكل التضحية" بالمقابر، معرفة ماهية ووظيفة "هياكل التضحية" هذه. وقد توصلت بناءً على جملة من المقارنات إلى أن الـ (توفت) أدى وظيفة جنازية وطقسية في الوقت نفسه، أي أن الأماكن التي عثر فيها على بقايا الأطفال المتقحمة كانت هياكل دون أن ينفي عنها ذلك وظيفتها الجنائزية.

ما يلاحظ حول دراسة غرا، رُوَّيَّار وتيكسيدور فضلاً عن تفسيرات بنعيشو-سفر هو أنها عالجت هذه الطقوس في سياق تزامني (سنكروني)، لكنها لم تقدم أي جواب فيما يخص تطور الطقس، تحديداً ظاهرة ارتفاع نسب بقايا الأطفال في الجرار "الجنازية" خلال الفترة الممتدة بين القرنين الرابع والثاني ق.م.

دراسة أضاحي الأطفال في قرطاجة في سياقها التطوري (دياكروني) سنجدها في نموذج تفسيري آخر، إنه نموذج لورنس ستايغر L. W. Stager.

٣-فرضية ستايغر أو النموذج التفسيري التوفيقي:

ليس المقصود في نعتنا لهذا النموذج بالتوفيقيّة، التوفيق بين النموذجين التفسيريين السابقين، النموذج التفسيري المحافظ والنموذج التفسيري المشكك، بل القصد منه هو التباين الشديد بين المقدمات التي انطلقت منها فرضية ستايغر وبين النتائج التي توصلت إليها والسعي نحو التوفيق بين هذه وتلك.

انطلق هذا النموذج من مقدمات أخذها بالأساس من النص التوراتي وتوصل إلى نتائج استقاها من الباليوديموغرافيا التاريخية والإيكولوجيا، إنه التوفيق في أجلى صورته بين مقولات من نص ديني غيبي لا تاريخي (النزعة المحافظة) وبين استنتاجات تم انتقاؤها من علوم وليدة.

عمل صاحب هذا النموذج في (هيكل ت ن ت) ب قرطاجة خلال النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي، وبذلك يكون هو الوحيد بين المفسرين الذي بثه في مجموعة قليلة جداً من المقالات السيرة^(٢٠).

إن اهتمام ستايغر بتطور الطقس قاده إلى تحليل المعطيات المتوفرة ضمن سياق دياكرونى (تطورى). شملت الدراسة التي اعتمد عليها في بناء فرضيته محتويات ١٣٠ جرة من بين ٤٠٠ جرة هي حصيلة التنقيبات التي أجراها هو وفريقه في جزء من (هيكل ت ن ت). العدد المدروس قسم إلى مجموعتين:

- مجموعة أ (القرن السابع- السادس ق. م.) مثلتها ٨٠ جرة قدمت النسب المئوية التالية:

عظام أطفال: ٦٢,٥ (٥٠ جرة)،

عظام حيوانات: ٣٠ (٢٤ جرة)،

عظام مختلطة: ٧,٥ (٦ جرار).

- مجموعة ب (القرن الرابع ق. م.) مثلتها ٥٠ جرة قدمت النسب المئوية التالية:

عظام أطفال: ٨٨ (٤٤ جرة)،

عظام حيوانات: ١٠ (٢٥ جرة)،

عظام مختلطة: ٢ (جرة واحدة)^(٢١).

كيف فسّر ستايغر هذه الأرقام والنسب ؟ إن الدلالات بالنسبة له، لا تكمن في تغيير طارئ على الطقس فحسب، بل تتجاوز ذلك لتقدم لنا صورة ديموغرافية مقارنة لجانب من الجغرافية البشرية في قرطاجة. بيد أن ستايغر لم يبلور فرضيته بشكل واضح نسبياً إلا بعد ذلك بسنتين حين نشر في دورية (Biblical Archaeology Review) التي يفوق اهتمامها بالإثارة والدعاية اهتمامها بالعلم، لأنها موجهة في الأصل للقارئ العام المسكون بهاجس دعاوى الصهيونية، نشر بالاشتراك مع وولف Wolff مقالة حملت عنواناً مثيراً: "التضحية بالأطفال في قرطاجة: طقس ديني أم وسيلة للتحكم في النمو السكاني"؟^(٢٢).

ما فعله ستايغر حقيقة هو أنه قدم النموذج التفسيري التقليدي بصورة جديدة: الشواهد المادية التي نصادفها في (هيكل ت ن ت) تقدّم الدليل على صحة ما ورد في النص التوراتي^(٢٣)، وهنا تكمن نزعة المحافظة في فرضية ستايغر، لكنه على خلاف أصحاب ذلك النموذج جرد الشواهد المادية من مدلولها الديني أو الطقسي، ليعتبرها مظهراً من مظاهر التحكم في النمو السكاني الذي لا تخفى أبعاده الاقتصادية والاجتماعية. وهو لكي يثبت النقطة الأخيرة عمد إلى إجراء سلسلة من القياسات التاريخية (historical analogies) التي تصب في خانة "قتل الأطفال" دون إبداء أي قدر من الحذر؛ فتحدث مثلاً عن مستشفى "الروح القدس" الذي بناه في نهاية القرن الثاني عشر البابا اينوسنت الثالث في روما "لأن العديد من النساء ألقين بأبنائهن في [نهر] التيبر"، ثم ذكر بين أمثلة عدة كيف أنه كان من المستحيل استيعاب عدد الأطفال غير المرغوب فيهم (unwanted) في أحد مستشفيات لندن خلال أواسط القرن الثامن عشر^(٢٤).

ونحن من جانبنا نريد أن نضيف إلى الأمثلة التي ذكرت أعلاه أمثلة أخرى ربما كانت أكثر أهمية، لأنها ترتبط بمجتمعات عاشت الظروف نفسها التي عاشتها قرطاجة تقريباً وظهرت على المسرح التاريخي خلال الفترة ذاتها: هناك مثال إسبارطة التي يخبرنا

بلوتارخ أن أهلها كانوا يلقون بأبنائهم المشوهين في أمكنة هامشية أسموها "مواضع العزل" (apothetia)^(٢٥)، ثم هناك الأمثلة التي يقدمها لنا العالم الروماني حيث قدرت نسبة الوفيات من الأطفال في عامهم الأول بين ٣٠,٦% و ٣٢,٨%^(٢٦).

ولكن هل القياس هنا صحيح؟ إن القياس حتى يكون سليماً لا بد أن يتم بين نظيرين. لكن أين احترام ستايغر لهذا الشرط؟ هل يصح قياس حالة قرطاجة على حالة أوروبا القرن السابع عشر؟

إن ستايغر مدفوعاً بالرغبة في جعل فرضيته أكثر تماسكاً، يتجاهل تماماً عبارة مهمة في كل الاستشهادات التاريخية التي اعتمدها، المقصود عبارة "الأطفال غير المرغوب فيهم" (unwanted children).

إن الحديث عن "أطفال غير مرغوب فيهم" يعني أن هناك "أطفالاً مرغوباً فيهم"، أي أن النوع الأول من الأطفال لم يكن مقبولاً في المجتمع إما لضعفه أو لتشوّهاته الخلقية، لذلك أخضع للانتخاب الطبيعي، أما النوع الثاني فهو الجدير بحمل أسماء الآباء وتحمل المسؤوليات في المجتمع مستقبلاً. ويبدو أن ستايغر لم يرد أن يقرأ في هذه العبارة سوى معنى واحد ووحيد، معنى يجعلها تنطبق على النوعين معاً من الأطفال، هذا بالطبع من أجل إضفاء مدلول اقتصادي على الطقس الذي كان يمكن في رأيه "الآباء من تنظيم الولادات والقيام باختبار على مستوى الجنس. أما بين النخبة الاقتصادية لـ قرطاجة فربما استخدمت المؤسسة الدينية القيمة على أضحى الأطفال من قبل الأسر الغنية للحفاظ على ثروتها، وذلك بالحد من عدد الورثة الذكور الذين كان من المفروض أن يقسم الإرث بينهم وكذا من عدد الإناث المفروض تقديم مهورهن عند أوان الزواج"^(٢٧).

إن الطقس في ضوء هذا التفسير ارتبط بالأسرة، وممارسته خضعت لحسابات اقتصادية صارمة أقله عند الأسر الموسرة. يخرج ستايغر بهذا الاستنتاج العقيم وهو لم

يُقم بأدنى محاولة لدراسة اقتصاد قرطاجة ولا تحديد نمط الإنتاج الذي ساد في هذه المدينة. وبقيناً لو أنه فعل ذلك لقدم لنا نموذجاً تفسيرياً يعاني بصورة أقل من أغراض الارتجالية.

إن ارتباط الطقس بالأسرة في رأي ستايغر هو الكفيل وحده بتفسير احتواء بعض الجرار في (هيكل ت ن ت)، كل جرة على حدة، على بقايا طفلين أحدهما ولد قبل الألوان أو هو حديث ولادة والآخر تراوح عمره بين سنتين وأربع سنوات، وهذا يعني أن الطفلين معاً ينتميان إلى الأسرة نفسها، لأن سنتين إلى أربع سنوات -والرأي لـ ستايغر- هي المدد الطبيعية التي تفصل بين كل ولادة وولادة عند الأسر التي لا تمارس أي نوع من تنظيم النسل قبل الإنجاب^(٢٨).

بقي أن نشير إلى نقطة أخيرة في فرضية ستايغر، وهي نقطة لا تخلو من الأهمية لأنها تسعى إلى تحديد طبيعة الموضع الذي عثر فيه على بقايا الأطفال: هيكل أم مقبرة. في إجابته على تعقيب وجهة بيكار^(٢٩) انبنى على أساس المقارنة بين ندرة قبور الأطفال في مدافن قرطاجة وبين ارتفاع بقاياهم في هياكل التضحية أو الـ (توفت)، تحدث ستايغر عن ظاهرة ندرة قبور الأطفال في مدافن قرطاجة باعتبارها ظاهرة عادية تصادف على سبيل المثال في مقابر بلاد الشام خلال الدور الثاني من العصر الحديدي، محاولاً في الوقت نفسه استغلال هذه النقطة، التي لا زالت أسبابها غير واضحة تماماً بالنسبة لعلماء الأنثروبولوجيا العضوية، في إضفاء تماسك مزعوم على فرضيته، وهذا ما قاده إلى الخروج باستنتاج مكرر: إذا كانت قبور أو حالات دفن تعود على قتلها لأطفال في المدافن البونية، فليس لذلك سوى معنى واحد هو أن هؤلاء الأطفال ماتوا موتاً طبيعياً فتم دفنهم، بينما تمثل الحالات التي يقدمها الـ (توفت) نماذج تضحية والموضع الذي أمدنا بهذه الحالات ليس مدفناً بل هو هيكل^(٣٠).

هذه هي الخطوط العريضة للنموذج التفسيري التوفيقي كما بناء ستايغر الذي عجز عن الاستفادة من أدوات ناجعة استقاها من علوم وليدة مثل الباليوديموغرافيا والديموغرافيا التاريخية. والحق أن ما يثير الاستغراب في محاولة ستايغر هو أنه على الرغم من استفادتها من هذه العلوم لم تستطع الاهتداء إلى فكرة خصبة أصبحت من الأدوات الأساسية في العلوم المذكورة، المقصود فكرة "قدرة الاستيعاب"، مع أنها لامستها أو كانت مرات عدة إلى الحد الذي يجعلنا نعتقد بأن نموذج ستايغر التفسيري كان منطلقاً لنموذج آخر قام بشكل أساسي على هذه الفكرة.

٤- قدرة الاستيعاب نموذجاً تفسيرياً:

لا ندري تماماً ما إذا كانت عبارة "قدرة الاستيعاب" تؤدي في العربية بأمانة المعنى أو المعاني التي يحملها المصطلح الإنكليزي "carrying capacity". فهذا المصطلح الذي استعاره علماء الباليوديموغرافيا والديموغرافيا التاريخية ثم المهتمون بالمنهج والنظرية في علم الآثار من إيكولوجيا الأحياء (biological ecology)، لا يخضع لتفسير موحد عند جميع مستخدميه، والسبب في ذلك هو أن له معنيين متميزين: معنى مجرداً يُستخدم في الأبنية النظرية ومعنى علمياً يستخدم في قياس المظاهر المحددة لعلاقة جماعة معينة من الناس ببيئتها^(٣١).

كيف تم استخدام هذا المفهوم في تفسير ظاهرة التضحية بالأطفال؟ كيف تمت قراءة هذه الظاهرة في ضوء فكرة لا زالت تبحث عن ذاتها على المستوى النظري؟

الإجابة نجدها عند فاجنر C. G. Wagner وألبار J. Alvar^(٣٢). لكن قبل النظر في كيفية استخدام هذا المفهوم في تفسير أضاحي الأطفال، لا بد من استعراض الطريقة التي وظفه بها كل من فاجنر وألبار في تحديد الدوافع التي كانت وراء توسع الفينيقيين

غريباً. بالنسبة للباحثين لا يمكن فهم هذه الدوافع إلا في ضوء فكرة "قدرة الاستيعاب" (capacidad de sustentacion) لأنها الفكرة الكفيلة بتوضيح صورة تعامل الفينيقيين مع جملة من العوامل كانت في الحقيقة أسباباً وراء توجههم نحو منطقة غرب البحر الأبيض المتوسط. يلخص فاجنر وألبار هذه العوامل في:

- عامل جغرافي:

فرضته ظروف الجغرافية الطبيعية المميزة لمنطقة الساحل السوري-اللبناني، حيث يتسع مجال الجبال والمرتفعات على حساب السهول والأراضي الواطئة الصالحة للزراعة^(٣٣).

- عوامل بيئية:

تمثلت أساساً في الظروف المناخية التي ميزت منطقة فينيقيا، والتي أثر فيها بشكل أساسي وجود سلسلة جبال تمتد على طول هذه المنطقة. سلسلة الجبال هذه تتلقى مياه الأمطار الناتجة عن عملية التبخر في البحر الأبيض المتوسط. تلقىها للأمطار بالإضافة إلى اعتدال ارتفاعها في المتوسط جعل منها منطقة غابوية غنية، مما ساعد في الوقت نفسه على حصول استقرار في الدورة المناخية. لكن هذا الاستقرار انعدم بمجرد ما أصبحت المنطقة الغابوية المذكورة فريسة لاستغلال مكثف كان السبب وراءه تزايد الطلب على أخشاب لبنان، خصوصاً من قبل مصر الفرعونية. كل ذلك كان له مفعول سلبي على الزراعة التي أصبحت تعني من النقص المناخي ومن النقص في الموارد المتاحة^(٣٤).

- عوامل ديموغرافية:

تمثلت في النمو السكاني المضطرب وما فرضته من ضغط واستنزاف للموارد، خصوصاً بعد حصول بعض الأحداث التاريخية المؤثرة مثل زحف شعوب البحر^(٣٥).

غير أن هذه العوامل لم تكن وحدها المسؤولة، في رأي فاجنر وألبار، عن توجه الفينيقيين غرباً، ذلك التوجه الذي اتخذ حسب الباحثين طابعاً زراعياً، بل لا بد من أخذ العوامل الاقتصادية والسياسية (=التاريخية) كذلك بالحسبان^(٣٦).

بعد هذا الاستعراض لنموذج تفسيري طبق بصورة "قدرة الاستيعاب" في قراءة التوسع الفينيقي في منطقة غرب البحر الأبيض المتوسط، لا بد الآن من استعراض كيفية توظيف المفهوم نفسه في تفسير ظاهرة التضحية بالأطفال عند الفينيقيين ما جاء أساساً في فاجنر^(٣٧).

أول ما يثير الانتباه في دراسة فاجنر هو عنوانها: "التضحية مولوخ في فينيقيا" استجابة ثقافية للضغط الديموغرافي". الحديث إذن يمس فينيقيا، الأرض الأم، المستعمرات في غرب المتوسط! أليس في ذلك مصادرة على المطلوب؟

على الرغم من اعترافه بأن الجدل لا زال قائماً حول ما إذا كانت فينيقيا قد عرفت أو لم تعرف طقوساً من هذا القبيل، مشيراً في هذا الإطار إلى موقعي أوغاريت-رأس الشمرة وتل سوكناس^(٣٨)، قدم فاجنر دراسته كما لو أن هذا الجدل قد زال وأصبح من الثابت أن الفينيقيين قد مارسوا في وطنهم الأم طقوس التضحية بالأطفال. وهو بناء على تسليمه بذلك، طرح نموذج التفسيري القائم بشكل أساسي على مفهوم "قدرة الاستيعاب".

يعرف فاجنر الطقس (مولوخ) بأنه قتل للأطفال يخفي أصداء بسيكولوجية (نفسية) وسلوكية متلازمة، مارسه فينيقيو الغرب بعد أن تخطى فينيقيو الشرق عن ممارسته^(٣٩). الطقس (مولوخ) إذن يجب البحث عن تجلياته "الأولى" في شرق المتوسط، مع الأخذ بعين الاعتبار ارتباط هذه التجليات بظروف بيئية قاسية عرفت هذه المنطقة خلال

نهاية الألف الثانية ق. م. إنه ارتباط لا يتضح بصورة كافية إلا إذا تحدثنا في الوقت نفسه عن حصول ضغط ديموغرافي، حيث تتخذ العملية منحى توليدياً (processual): سوء الظروف البيئية يؤدي بالضرورة إلى تقلص في الموارد وتهديد للأمن الغذائي، كما أن الضغط الديموغرافي يستنزف هذه الموارد الأخذة أصلاً في التقلص باطراد، وعندما يصل الأمر إلى الحد الذي ينعدم في التوازن، بين الموارد المتاحة وبين عدد السكان المعتمدين على تلك الموارد، تصبح الحاجة ماسة إلى تنظيم الوضع غير السوي، والعودة إلى حالة التوازن بالنسبة للفينيقيين كان المفتاح هو قتل الأطفال^(٤٠).

بيد أن هذا التفسير تواجهه مشكلة حقيقية: إذا كان الطقس (مولوخ) استجابة ثقافية للضغط الديموغرافي فلماذا مارسه فينيقيو الغرب منذ بداية تأسيسهم لمراكز استيطانية مثل قرطاجة وغيرها...؟ إذ لا يعقل أن تلك المراكز عانت منذ قيامها ضغطاً سكانياً، بل إن العكس ربما كان صحيحاً.

حاول فاجنر حل هذه المعضلة بالحديث عن طقس ممارسته على النخبة، معتمداً في إثبات ذلك على نصين لا يقولان الشيء الكثير، أحدهما لـ ديودور والآخر لـ فيلون الجبيلي، ومتحدثاً في الوقت نفسه عن احتمال كون الـ (توفت) جبانة للأطفال^(٤١).

ما المقصود باقتصار ممارسة الطقس على النخبة؟ ربما نفهم من ذلك أن النخبة تعني هنا الطبقة الحاكمة أو يمكن التوسيع من الدائرة التي يشملها هذا المصطلح لتتحدث عن معنى للمواطنة، أي اقتصار ممارسة الطقس على أفراد الشعب أو من يُعدون مواطنين^(٤٢)، أو ربما ذهبنا مع بيكار إلى اعتبار أن الطقس (مولوخ/ م ل ك) كان طقساً وطنياً تنظمه الطبقة الحاكمة أو ممثلوها في البداية، ثم تحول إلى طقس أسري ارتبط أكثر بالأسرة^(٤٣).

إذا كان هذا الاستعراض للنماذج التفسيرية التي حاولت تحديد الدافع وراء طقوس التضحية بالأطفال يوحي بشيء بأنه بحجم الغموض الذي لا زال يخيم بظلاله على

هذا الموضوع. والغريب أن الغموض لم يمنع أصحاب النماذج المذكورة من اتخاذ مواقف وثوقية جعلتهم يتوصلون بالضرورة على حد رأي باولو كسيللا p. Xella^(٤٤) - إلى استخلاص نتائج غير ناضجة.

إن انعدام النضوج يتضح في كل نموذج تفسيري على حدة: في النموذج التفسيري التقليدي هناك إغراق في التعامل مع النص دون إخضاع مقولاته لنقد فيلولوجي عميق يُمكن من التمييز بين الحقيقة النصية وبين الحقيقة التاريخية. ولئن كان هذا النموذج يشكو بسبب ذلك من توظيف كل الشواهد وعلى رأسها الشواهد الأثرية في خدمة النص قصد إثبات تاريخيته، فإن النموذج التفسيري المشكك أعطى لنفسه الحق في استبعاد النص وتجاهل مقولاته استناداً إلى "حقائق" الباليوديموغرافيا والديموغرافيا التاريخية. أما النموذج التفسيري التوفيقي، أي نموذج ستايغر، فيحسن أخذه مثلاً لـ "تمأزق" المنهج والتفسير في علم الآثار الشرقية. إن "التمأزق" هنا ليس مصدره النتائج التي توصل إليها هذا النموذج: التضحية بالأطفال وسيلة من وسائل الحد من التزايد السكاني، بل من المقدمات التي انطلق منها. إنها مقدمات ترفد من النص ومن آخر ما تم التوصل إليه في حقل النظرية في علم الآثار. لذلك ليس من المستغرب أن نجد ستايغر ضائعاً في نمودجه بين مقولات النص وبين الأدوات التي استعارها من الحقل النظري (القياس الإثنوغرافي مثلاً)، إلى الدرجة التي جعلته غير قادر تماماً على توضيح الحد بين الطقسي وبين الديموغرافي في ظاهرة التضحية بالأطفال. كيف يمكن تصور مجتمع ظل يمارس طيلة قرون الحد من التزايد السكاني بطريقته الخاصة: قتل الأطفال؟! إذا كانت التضحية بالأطفال استجابة للضغط الديموغرافي فعلاً، فمن المفروض أن يتم اختيار الضحايا أساساً من البنات^(٤٥)، بل إذا كانت التضحية بالأطفال استجابة للضغط الديموغرافي، فقد كان من الأولى أن نجد لها حضوراً عند الأمم الأخرى!

يتحدث ستايغر في نموذجه عن الضغط الديموغرافي دون أن يقدم أدنى تعريف له. من البديهي أن الضغط الديموغرافي لا يمكن في أي مجتمع إلا إذا كانت نسبة النمو السكاني عالية فيه، أي إذا كانت نسبة المواليد تفوق نسبة الوفيات. هل انطبق ذلك على قرطاجة البونية؟ في الوقت الراهن لا يمكن تقديم الجواب حتى لو تم اللجوء مثلاً لـ سترابون الذي قال بأن عدد سكان قرطاجة بلغ ٧٠٠٠٠٠ نسمة^(٤٦).

أما النموذج التفسيري الأخير، أي "نموذج قدرة الاستيعاب"، فهو النموذج الوحيد الذي أبان حتى الآن بين النماذج المذكورة عن نضج نسبي، لكن خطأه المنهجي هو أنه تعامل مع "فكرة قدرة الاستيعاب" كمحدد مستقل منفصل تماماً عن العوامل الاجتماعية والاقتصادية، مع أن ذلك غير صحيح. إن الانتقاد الأساسي الذي يمكن توجيهه لهذا النموذج وكذلك لنموذج ستايغر هو أنه يعظم من شأن مسألة "الضغط الديموغرافي" إلى حد اعتبارها عاملاً أساسياً في عملية التغير الثقافي، وهذا يقود بالضرورة إلى إغفال المتغيرات الديموغرافية الأخرى، مثل مقدار نسبة المستهلكين إلى المنتجين وحجم الأسرة المرغوب فيه^(٤٧).

ويبقى أن الانتقاد الذي وجه لـ "فكرة قدرة الاستيعاب" يدعو إلى إعادة النظر في هذه الفكرة وعدم الوثوق كثيراً في نجاعتها إلا إذا تم التوصل إلى تحديد:

١- كمية الغذاء المتاح في منطقة محدّدة تستخدمها جماعة معيّنة من الناس،

٢- كمية الغذاء المتاح في ظل استخدام تقنية أو تقنيات إنتاج محدّدة،

٣- التغيرات الطارئة على بيئة المنطقة قيد الدراسة.

لكن هل بالإمكان تحديد هذه العناصر الثلاثة؟ نعتقد بأن الجواب بـ نعم على هذا السؤال سيكون فيه ضرب من التفاؤل المفرط (انظر في هذا الإطار حديث هليدن B. Hayden عن معضلة "قدرة الاستيعاب"^(٤٨)).

النماذج التفسيرية المذكورة تعاني كل حسب أطروحاتها من تأزم. ونحن هنا لن ندعي بأننا وجدنا الحل أو وضعنا يدنا على الجواب الذي سيحيل ظاهرة "التضحية بالأطفال" في العالم البوني، من ظاهرة غامضة مُلغزة إلى ظاهرة غاية في الوضوح. ما نريد قوله في ختام هذه الدراسة المتواضعة يتلخص فيما يلي:

هناك نص (=العهد القديم والكتابات الكلاسيكية) تحدّث وأسهب في الحديث عن ممارسة الكنعانيين ثم من بعدهم الفينيقيين - البونيين لـ "التضحية بالأطفال"، وهناك من جهة أخرى شواهد مادية قد تثبت أو قد تنفي هذا الحديث.

لكن مشكلة النص هو أنه مبهم، يحتمل تفسيرات عدة ولذلك استخدمته كل النماذج التفسيرية وفق ما تراه متفقاً مع طريقة إجابتها عن السؤال الإشكالي: لماذا مورست "التضحية بالأطفال"؟

بالنسبة للنص التوراتي نعتقد أن إقامه بشكل مكثف في دراسة موضوع "التضحية بالأطفال" عند البونيين هو أمر في غير صالح البحث، لأن هذا الموضوع ليس بحاجة إلى غموض يستعيره من النص التوراتي ليضيفه إلى حجم الغموض الكثيف الذي يحيط به في الأصل. أما الكتابات الكلاسيكية فلا يمكن الاستغناء عنها وإن كان من غير المفيد التعويل عليها كثيراً، لأنها تنقل في الحقيقة أخباراً انطباعية هدفها تمييز الآخر، إما باختلاق حكايات عنه قد لا يكون لها أساس من الصحة، أو بتأويلها بأفعال أتاها هذا الآخر بصورة مغرضة لأنها لم تكن مفهومة للذات أو لم ترد الذات فهمها. والتفسير الأخير محتمل إلى الحد الذي يدعونا إلى استحضار حكاية هيرودوت عن وفود القبائل التي جاءت إلى بلاط ملك الفرس العظيم، لتقديم الولاء فـ "كان كل وفد منها يشق فزاعاً كلما سمع عن المراسم الجنائزية لدى الوفد الآخر، فالبعض كان يحرق موته، والبعض الآخر كان يحنطهم، وفي النهاية اقتبس هيرودوت بيتاً للشاعر بندار Pindar يقول فيه إن العرف هو الملك الذي يحكم الجميع^(٤٩).

بيد أن هذا التفسير لا يجب أن يدفعنا إلى استبعاد هذه الكتابات استبعاداً كلياً، ذلك أن فيها معلومات هامة، مثل تلك التي تحدثنا عن ارتباط ممارسة الطقس عند القرطاجيين بظروف الحرب أو بظروف استثنائية بشكل عام^(٥٠). هذه معلومة في غاية الأهمية، تزداد أهمية كلما حاولنا ربطها بالإطار التاريخي لعلاقات قرطاجة بجيرانها، وقرأنا في ضوئها بالتالي التغير الطارئ على الطقس بالصورة التي قدمتها لنا جرار (هيكل ت ن ت) في قرطاجة وفي غير قرطاجة، على المستوى الدياكروني^(٥١) (التطوري). فالسجل العظمي لجرار (هيكل ت ن ت) في قرطاجة وفي موتيه^(٥٢) يعلمنا بارتفاع نسب بقايا الأطفال خلال فترة ما بعد القرن الخامس ق. م. مقارنة بالفترة السابقة.

وعلى الرغم من أن المعلومات التي يقدمها السجل العظمي هي معلومات نسبية لأن الجرار التي تمت دراسة محتوياتها قد لا تكون ممثلة لكل الجرار "الجنازية" تمثيلاً جيداً، إلا أن ذلك يدعونا إلى طرح سؤال، الجواب عليه مرهون بالطبع بوضع وحالة المعلومات المتاحة في الوقت الراهن: ما مدلول هذا التغير؟ لماذا كان القرن الخامس هو بداية التغير؟

هناك مسألة لم يتم التنبيه إليها حتى الآن، تتمثل في "الثورة" التي جلبها القرن الخامس إلى قرطاجة وربما إلى المراكز الدائرة في فلك المدينة؛ إنها "ثورة" بدت ملامحها في أكثر من ميدان: في الدين ظهرت (ت ن ت ف ن بعل)^(٥٣)، في الفن تغيرت ملامح الفخار من فخار مرتبط بالصناعة الفخارية الفينيقية الشرقية إلى فخار ذي ملامح محلية^(٥٤)، كما تحولت الأنصاب النثرية من أنصاب -عروش أو أنصاب- مذابح إلى مسلات رفيقة ذات رؤوس مثلثة، وهذا التحول صاحبه تحول آخر على مستوى النماذج الزخرفية^(٥٥).

إذا رجعنا إلى التاريخ سنجد أن الفترة نفسها كانت غنية بالأحداث، هنا لن نشير سوى إلى معركة حميرا (٤٨٠ ق. م.) التي أسفرت عن هزيمة القرطاجيين أمام يونانيي

صقلية. ما دلالة هذه التحولات. وما علاقتها بازدياد نسبة "أضاحي الأطفال" في قرطاجة بعد القرن الخامس؟

قبل الإجابة عن هذين السؤالين لا بد من التطرق لقضية "أضاحي الأطفال". نود الإشارة بدءاً إلى أن الأمر ربما تعلق بـ "أضاح" -إن نحن تشبثنا باستخدام الاصطلاح الشائع- من أطفال توفوا في سن مبكرة، في وقت كانت فيه نسب الأموات من الأطفال مرتفعة تتراوح بين ٣٠ و ٤٠%، بحيث أن عدد أطفال الأسرة الواحدة الذين كانوا يصلون إلى سن الزواج لم يكن يتعدى طفلين^(٥٦). طبعاً الأسباب وراء هذه الظاهرة متباينة. هناك أولاً السن الصغير للأُم عند إنجابها أول أبنائها الذي إن لم يتعرض للوفاة فهو معرض لا محالة للذهاب. وليس هناك من تعبير أفضل عن هذه المسألة من القول المنسوب إلى حكيم بابلي:

"كيف يكون المولود البكر على الدوام هزيراً؟

إن العجل الصغير الذي يليه فيساوي ضعف قيمته،

الطفل الضعيف يأتي إلى العالم أولاً،

لكن "القوي البطل" يكون اسم الثاني^(٥٧).

وهناك أسباب أخرى تتعلق بمستوى الرعاية المتواضع المتاح الذي كان يؤثر بشكل كبير على مقاومة المواليد للظروف المحيطة.

ظاهرة "التضحية بالأطفال" قد تجد تفسيرها إذن في مسألة ارتفاع نسبة وفيات الأطفال قديماً، ذلك الارتفاع الذي لا شك أن وطأة الإحساس به ازدادت في ظل ظروف الحروب التي خاضها القرطاجيون ضد جيرانهم سراقوزة، يونانيي صقلية والرومان. ولئن كانت هذه الحروب قد صاحبته تحولات ثقافية عميقة لم تقدر بعد حق قدرها ولم تُدرَس بما فيه الكفاية، فإن موضوع "التضحية بالأطفال" يجب أن يُقرأ في إطار هذه

التحولات. صحيح أن هذا الطقس مورس في قرطاجة منذ بداية تأسيسها، لكن ممارسته كانت محدودة ولم تصبح ظاهرة ملحوظة إلا بعد القرن الخامس ق. م. وليس لذلك سوى معنى واحد على الأرجح: مارس القرطاجيون والبنونيون عموماً "التضحية بالأطفال"، أي حرق الأموات من أطفالهم مستعيرين بذلك طقساً كنعانياً قائماً ربما على نظرة خاصة للنار، باعتبارها مبدأ تخلصياً أو تطهيرياً قادراً على تجديد قوى الدولة والمجتمع والشد من أزرها في مجابهة العدو. أما تقديم هؤلاء الأطفال لـ (ت ن ت ف ن بعل) و(بعل ح م ن)، أي لمبدأي الأنوثة والذكورة (= مبدأ الخصب) فمن المحتمل أن الغاية منه كانت العون من الإلهين المذكورين لتعويض الآباء بأطفال أصحاء بدل من الذين قضوا في سن مبكرة. وهذا لا يعني بالطبع أن القرطاجيين والبنونيين عموماً لم يمارسوا كذلك دفن الموتى من أطفالهم. صحيح أن الأمثلة نادرة في هذا الإطار، لكن ندرتها قد تُعزى إلى مسألة الطافونوميا (taphonomie) فحسب التي تجعل العثور على بقايا الأطفال في المقابر أمراً نادراً جداً.

خاتمة:

ما نصادفه من شواهد مادية في "هياكل التضحية" في قرطاجة وبعض مواقع العالم البوني لا يقدم لنا الدليل المعين على روايات الكتاب الكلاسيكيين في روايات صحيحة، بل يجعل على العكس من ذلك التشكيك في هذه الروايات أمراً وارداً. من المحتمل أن النص الكلاسيكي يعكس حالة من عدم الفهم عانى منها واضعو هذا النص تجاه ظاهرة "التضحية بالأطفال" عند البنونيين، فوضعوا جملة من الحكايات التي هدفت إلى تمييط الآخر ووضعه في خانة معينة، جمعت كل الأوصاف التي أراد لا شعور الذات أن يتصف بها هذا الآخر.

الشواهد المادية في هذه الحالة قد تكون مجرد شواهد عاكسة لتعامل ثقافي محدّد مع ظاهرة ديموغرافية: ارتفاع وفيات الأطفال. وعلى الرغم من أن رسم الحد بين ما هو

ثقافي وبين ما هو ديموغرافي في هذه الظاهرة يظل أمراً افتراضياً، إلا أنه يمكن الحديث عن لجوء البونيين إلى حرق أطفالهم الذين توفوا في سن مبكرة لاعتبارهم النار مبدأً تخلصياً تطهيرياً، ولتكريس من أحرقوه من أطفالهم الأموات — (ت ن ت ف ن بعل) ولـ (بعل ح م ن)، لأن هذين الإلهين كان ينتظر منهما تعويض الآباء عن موتاهم من الأطفال بأطفال أصحاء يشدون من أزر الدولة ويدروون عنها الخطر الداهم.

لذلك قد يكون من غير المستغرب أن البونيين اضطروا أكثر لحرق موتاهم من الأطفال حينما أصبحوا متورطين في حروب طاحنة مع جيرانهم في عرض البحر المتوسط، حصل ذلك خلال القرن الخامس ق. م. وما بعده، وهي الفترة ذاتها التي شهدت فيها قرطاجة جملة من التحولات الشاملة التي تستحق أن تكون عنواناً على "ثورة".

ويبقى أن الشعور بالتهديد الممارس على الكيان القرطاجي، ذلك الكيان الذي شكّل مركزاً مهماً في عالم "الدياسورا" (الشتات) الفينيقي، جعل اللجوء إلى طقوس من هذا القبيل أمراً مرغوباً فيه قصد درء الأخطار، وإعادة القوة للدولة التي تهددتها الأخطار لأول مرة بصورة حقيقية بعد معركة حميرا (٤٨٠ ق. م.). وإذا كان هناك أمرٌ يمكن أن نأسف له في نهاية هذه الخاتمة فهو غياب أي نص بوني يعكس لنا الحالة النفسية للقرطاجيين بعد هزيمتهم أمام يونانيي صقلية، أو عند خوضهم الحرب ضد أغاثوكليس طاغية سراقوزة أو ضد روما في الحروب البونية الثلاث.

أما التوصية التي نحس أن طرحها لازم في نهاية البحث فهي ضرورة التصدي لدراسة التحولات التي عرفتتها قرطاجة والمراكز الدائرة في فلكها بعد القرن الخامس، لأن تلك التحولات هي من العمق والخطورة بحيث تستحق أن تُدرس بشكل شامل ومععمق.

المصادر والمراجع والحواشي

- (١) من أجل بيبلوغرافية تغطي جوانب مختلفة من المشكلة انظر
- H. Bénichou-Safar, "Tophets et nécropoles puniques" *VI^e Colloque International sur l'Histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord*, Nancy, 1995, P. 91-102.
- (2) J. Henninger, "Sacrifice", *the Encyclopedia of Religion*, Vol. 12, New York, 1987, P. 544.
- (3) M. Gras, P. Rouillard, J. Teixidor, "The Phoenicians and Death", *Byretus*, 39, 1991, P. 127-67.
- (٤) وردت كلمة "توفت" في سياقات مختلفة من العهد القديم (انظر على سبيل المثال إرميا ٧: ٣١ "وبنوا مرتفعات توفت التي في وادي ابن هنوم ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار الذي لم أمر به ولا صعد على قلبي").
- (٥) حسب فرايزر كانت طقوس التضحية تمارس منذ القديم لكنها تطورت حيث مورست "لتهدئة الإله بأن تحرق على شرف الملك أو ابنه [...] ثم] حصل الاستبدال... فحل ابن الملك مكان أبيه، فرجل من العامة، فحيوان ثم أخيراً صورة تمثل شخصاً نقلاً عن
- C. Bonnet, "Melqart: Cultes et mythes de l'Héraklès Tyrien en Méditerranée", Namur, 1988, P. 105.
- (6) R. Dussaud. "Milk, Molok, Melqart", *Revue de l'Histoire des Religions*, 49, 1904, P. 181; W. Hallo, "Hallo, "The Origins of the Sacrificial Cult: New evidence from Mesopotamia and Israel", in *Ancient Israelite Religion*, eds P. D. Miller Jr., P. D. Hanson, S. D. McBride, Philadelphia, 1987, p. 3-13.
- (7) C. Schaeffer, *Communication dans Comptes rendus de l'académie des inscriptions et Belles-lettres*. 1956, p. 67; cf. id., apud A. Herdner, *Une prière à Baal des Ugaritains en danger*", *Comptes rendus de l'académie des Inscriptions et Belles-lettres*, 1972, p. 698-99.

- (8) S. Moscati, **"Il sacrificio punico dei fanciulli: realtà O invenzione?"** Accademia Nazionale dei Lincei, Quaderno, 261, 1987, p. 3-15.

نشير هنا أيضاً إلى دراسات لـ موسكاتي تسير في الاتجاه نفسه:

- id. **"Gli adoratori di Moloch. Indagine su un celebre rito cartaginese"**, Milan, 1991; S. Moscati & S. Ribichini **"Il sacrificio dei bambini: un aggiornamento"**, Accademia nazionale dei lincei, Quaderno, 266, 1991, p. 1-44.

- (9) *ibid*, p. 10.

- (10) *ibid*.

الرأي نفسه يرد في

- C. Picard, **"Les sacrifices Molk chez les Puniques: certitudes et hypothèses"**, Semitica, 39, 1990, p. 84;

- P. Xella, **"Tendenze e prospettive negli studi religione fenicia e punica"**, Atti del II Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici. vol. 1, Rome, 1991, p. 429.

- (12) Moscati, **"Il sacrificio punico. . ."**, *op. cit.*, p. 10.

- (13) *Ibid*, P. 6.

- (14) C. Picard, *op. cit.* p. 84-85, n. 39

حول تحليل واف لحكاية انتحار ديدون، انظر

- C. Baurain, **"Le rôle de Chypre dans la fondation de carthage"**, Studia Phoénicia VI (Carthago), Leuven, 1988, p. 15-27.

- (15) Gras, Rouillard, Teixidor, *op. cit.*, p. 172.

- (16) *ibid*.

- (17) *ibid*, p. 172-173.

- (18) H. Bénichou-Safar, **"Le rite d'entrée sous le joug des stèles de Carthage à l'Ancien Testament"**, Revue de l'Histoire des Religions, 210, 1993, p. 131-43.

- (19) H. Bénichou-Safar, "Tophets et nécropoles puniques", VI Colloque International sur l'Histoire et l'archéologie de l'Afrique du Nord, Nancy, 1995, p. 91-102
- (20) L. W. Stager, "Carthage: A View from the Tophet", Phönizier im Westen (Madrider Beiträge 8), Mainz, 1982, p. 155-66; id., "Phoenician Carthage: The Commercial Harbor and the Tophet" (en hébreu), Qadmoniot, 17, 1984, p. 39-49; id., **Le tophet et le port commercial** Pour sauver Carthage, Unesco, 1992, p. 72-78; L. W. Stager & S. R. Wolff "Child Sacrifice: Religious Rite or Population Control?", **Biblical Archaeology Review**, 10, 1984, p. 30-51.
- (21) W. Stager, "Carthage A View from the Tophet", op. cit., p. 159.
- (22) L. W. Stager & S. R. Wolff, "Child Sacrifice: Religious Rite or Population Control?", op. cit, p. 30-51.
- (32) *ibid*, p. 32.
- (24) *ibid*. p. 51.
- (26) Gras, Rouillard & Teixidor, op. cit., p. 173.
- (26) W. V. Harris, "Child Exposure in the Roman Empire", Journal of Roman Studies, 84, 1994, p. 1-22.
- (27) Stager, "Le tophet et le port commercial", op. cit, p. 75.
- (28) Stager, "Cartahge: A View from the tophet", op. cit., p. 161-62; id., "Phoenician Carthage: The Commercial Harbor and the Tophet", op. cit., p. 48.
- (29) G.-Ch. Picard, apud Stager, "Carthage: A View from the Tonhet", op. cit., p. 165.
- (30) Stager, "Csrthage View from the Tophet", op. cit., p. 165.
- (31) M. A. Glassow, "The Concept of Carrying Capacity in the Study of Culture Process", Advances in Archaeological Method and Theory, New York, 1978, p. 31-48.
- (32) C. G. Wagner & J. Alvar, "Fenicios in occidente: la colonización agrícola", Rivista di Studi Fenici, 17, 1989, p. 61-102; C. O. Wagner, "EL sacrificio del Moloch en Fenicia : una respuesta adaptativa a

- la presión demografica**", Atti del 11 Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici, Vol. 1, Roma, 1991, p. 411-16.
- (33) Wagner & Alvar, **op. cit.**, p. 63-64.
- (34) **ibid.** p. 65-67.
- (35) **ibid.** p. 68-72.
- (36) **ibid.** p. 72-73.
- (37) Wagner, **op. cit.**
- (38) **ibid.** p. 415.
- (39) **ibid.**
- (40) **ibid.** 415416.
- (41) **ibid.** 416.
- (42) M. E. Aubet, **"The Phoenicians and the West. Politics, Colonies and Trade"**. Cambridge, 1993, p. 216.
- (43) G.-Ch. Picard & C. Picard, **"Life and Death of Carthage"**, New York, 1968. 153-54.
- (44) P. Xella, **"Tendenze e prospettive negli studi religione fenicia e punica"**, Atti del II Congresso Internazionale di Studi Penici e Punici, vol. I, Rome, 1 , p. 42
- (45) M. E. Aubet, **op. cit.**, p. 2 15.
- (46) E. Lipiński, **"Sacrifices d'enfants à Carthage et dans le monde sémitique oriental"**, *Studia Phoenicia VI (Carthago)*, Leuven, 1988, p. 159.
- (47) F. A. Hassan, **"Demographic Archaeology"**, New York, 1985, p. 163.
- (48) Hayden, **"The Carrying Capacity Dilemma"**, *American Antiquity*, 40, 205-22 1.
- (٤٩) ب. رسل، "حكمة الغرب"، الجزء الأول، ترجمة ف. زكريا، سلسلة عالم المعرفة، ٦٢، الكويت، ١٩٨٣، ص. ٩٠.

(٥٠) انظر في هذا الإطار

A. Simonetti, "Sacrifici umani e uccisione rituali nel mondo fenicio-punico. Il contributo delle fonti letterarie classiche", *Revista di Studi Fenici*, 11, p. 91-111.

(٥١) انظر

L. W. Stager, "Carthage: A View from the Tophet", *op. cit.*,

(٥٢) الملاحظة نفسها تنطبق على مواقع أخرى مماثلة من قبيل ثاروس في صقلية،

انظر في هذا الإطار

F. Fedele & G. V. Foster, "Tharros: ovicapriini sacrificali e rituale del Tofet", *Revista di Studi Fenici*, 16: 2946.

(٥٣) الحق أن هذا التغير الذي حصل على مستوى الدين لم ينل بعل الاهتمام الذي يستحق.

(54) A. M. Bisi, "La ceramica punica Aspetti e problemi", Napoli, 1970, p. 191.

(55) C. PICARD, "Les representations du sacrifice *molk* sur les *ex-voto* / stèles de Carthage", *Karthago*, XVII, 1973-74 [1976], p. 67-138; XVIII, 1975-76 [1978], p. 5-116.

(56) W. Suder, "tophet a Carthage. quelques remarques sur le rite funéraire et les problèmes démographiques", *Atti del II Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici*, vol. I, éd. S. Moscati, Rome, 1991, p. 407408.

(57) E. Lipiński, "Sacrifices d'enfants à Carthage et dans le monde punique", *Studia Phoenicia VI (Karthago)*, éd. E. Lipiński, Leuven, 1988, p. 161.